ديناميات التفاعل و العلاقات الاجتماعية بين الآباء والأبناء في مرحلة الشّباب

سامية قطوش، أستاذة مساعدة(ا)
قسم علم الاجتماع والديموغرافيا، جامعة سعد دحلب البليدة
كلية الآداب والعلوم الاجتماعية

مدخل:

إنّ قضية تكيف الفرد و قدرته على الإندماج و التوافق في المحيط الأسري من الأمور الهامة جدا في حياته و في مساره الإجتماعي على الرغم من أنّ قضية الراحة هذه هي مرتبطة بدورها بميكانيزمات أخرى يتعلق بعضها بعوامل خاصة بالفرد ذاته كمركزه في الأسرة و دوره و مكانته بين أفراد عائلته، و البعض الآخر يتعلق بالجانب العلائقي للفرد مع أفراد أسرته خاصة الوالدين.

و تعتبر مرحلة الشباب من أهمّ مراحل النّمو في حياة الفرد، و إن لم تكن أهمّها على الإطلاق، حتّى أنّ بعض العلماء و الباحثين يعتبرونها بدء ميلاد أو بعث جديد للفرد، نظرا للتغيّر الجذري الذي يمسّ جميع جوانب النّموّ في هذه المرحلة،بما فيه أنماط السّلوك و أساليب التّفكير، و لذلك فإنّ هذه المرحلة (الشباب) تستمدّ أهمّيتها من أهمّيّة المعطيات التي تميّز هذه الفترة من حياة الإنسان، و التي توحي في مجملها إلى ثقافة شبابية خاصّة بجيل معيّن، و هذا ما يستدعي فعلا تعاملا خاصّا معها.

1- خصوصية العلاقة بين الآباء والأبناء في مرحلة الشّباب :

تختلف الأساليب التي يستعملها الآباء في تربية أبنائهم من أسرة إلى أخرى و من آباء إلى آخرين، كما أنّ تعامل هؤلاء الآباء مع الأبناء خلال مختلف مراحلهم العمرية يجب أن يقابل بنوع من التفهّم و التفطّن لمتطلّبات و خصائص كلّ مرحلة، فما يحتاجه الإبن في طفولته غير ما يتطلّبه في مرحلة المراهقة، و كذلك الشّباب، لأنّهما مرحلتان مختلفتان ليس من حيث النّمو الجسمي فحسب بل أيضا من حيث خصائص النّمو الاجتماعي و الانفعالي و النّفسي الذي يتطلّب تحقيق حاجيات من نوع جديد تتناسب و خصائص

النّمو هذه، و بالتالي تفرض أو تتطلّب من الآباء تعاملا خاصا حسب خصوصية المرحلة، و لعلّ لمرحلة الشّباب ميزات خاصّة قد تأثّر بشكل أو آخر على عملية التفاعل الاجتماعي مع الآباء، و لذلك فإنّ « الحديث عن العلاقات التي يتبادلها الشّباب مع أسرهم ينبغي أن يتوقّف طويلا عند المرتكزات القيمية مثيلاتها المفاهمية التي تشكل مضمون هذه العلاقات و كذلك عند السلطة المتجسّدة بأنظمة المسموح و الممنوع لتركيز تلك القيم في أفئدتهم وحملهم على احترامها، و تتمثّل هذه العملية بمعادلة تشكّل أنظمة القيم المطلوب تمريرها إلى الشّباب، كأحد طرفيها، و درجة استيعابها و تمثلها من قبله، طرفها الثاني، و توازن هذه المعادلة معرّض دائما للانهيار إذا ما طرأ أي تغيير على وضع أحد الطرفين، فهو إذن غير دائم و لا شامل».

و على هذا الأساس، نستطيع التمييز بين نوعين من العوامل التي يمكن أن تأثّر على طبيعة العلاقات المتبادلة بين الشّباب و أسرته، حيث يشمل النّوع الأوّل عوامل كنمط الأسرة و انتمائها الاجتماعي، و مستواها المعيشي ...الخ، و يضمّ النّوع الثاني، عوامل أخرى كالجنس و السنّ و المشاركة التي تعني قيام الشّباب بدور في الأسرة أم لا، أو بالأحرى مدى أهمّية المكانة التي يحتلّها هذا الإبن من حيث مقدار المشاركة في سير الحياة الأسرية.

هذا من جهة، و تأتي من جهة أخرى خصوصية العلاقة بين الآباء و الأبناء في هذه المرحلة من حيث أنّه في « مرحلة الشّباب فقط يبدأ الأبناء في اكتشاف حقيقة الآباء كأشخاص تشكّلت مصائرهم و مقدراتهم في جانب منها من خلال رغباتهم، بطريقة شعورية أو لا شعورية، و من خلال مواقفهم التاريخية، و في هذه المرحلة أيضا تأخذ التساؤلات التي تدور حول تقاليد الأسرة و مصيرها و مستقبلها و ثقافتها و شقائها تفرض نفسها و بقوة على الفرد، و في هذه المرحلة كذلك يثار التساؤل حول ما إذا كان يتعيّن على الفرد أن يعيش حياة الآباء و لأيّ مدى ...ثمّ أخيرا يتعلّم الفرد في هذه المرحلة أن ينظر إلى ذاته و إلى والديه كأشخاص متعدّدي الأبعاد و أن ينظر إليهم بقدر من الفهم و الشفقة، و أن يشعر بنوع من الأمن اتّجاه مصيرهم و أن يكون قادرا لو تركت له حرية الاختيار على أن يتجاوز ما هم عليه، و هنا تكمن أولى بذور الصراع بين الآباء و الأبناء من منطق نفسي اجتماعي».

و إذا ما حاولنا فهم هذا، نجد أنّ هذا الصراع في الحقيقة ينتج عن اختلاف الأطر الثقافية لكلّ جيل، و ما يزيد الأمر صعوبة و توتّر هو أنّ هذين الجيلين مع اختلاف ثقافتهما يعيشان نفس الفترة الزمنية و يشتركان في نفس البيئة و تحت ظلّ ظروف اجتماعية و اقتصادية مشتركة، و لا يقتصر الأمر على هذا الحدّ فقط، بحيث نجد أنّ المحتوى الثقافي

الذي اكتسبه الآباء و هم صغار أو في مراحل طفولتهم من خلال نوعية أو نمط التنشئة الاجتماعية الذي اكتسبوه، يختلف بصورة واضحة بالمقارنة مع ما يكتسبه الأبناء اليوم.

« و طالما أنّه من المتصور أنّ الأب هو المسئول الأوّل عن عمليات التنشئة الاجتماعية، فإنّه في العادة يميل إلى أن يطبق محتوى ثقافي قديم (هو ما اكتسبه) لا يتلاءم مع الموقف الراهن للأبناء، هذا في الوقت الذي يعجز فيه عن إحداث عملية « تحديث « أو حتى تعديل لنظرته و طريقته في الحياة، لأنّه أي – الأب – هو نفسه نتاج لهذه التجارب و الخبرات، زد على ذلك أنّ محاولة تغيير الآباء لمفاهيمهم و تصوّراتهم الأساسية التي اكتسبوها خلال خبراتهم و تجاربهم الطويلة تعني في واقع الأمر الإعتراف بأنّ هذه الخبرات و التجارب المتراكمة كانت غير ذات معنى أو أنّ حياتهم السابقة كانت فارغة من كلّ تصوّر».

و لأجل كلّ هذا لم يصبح بإمكان الأولياء تطبيق التربية التي تلقّوها من الجيل السابق على أبناء متفتّحين على قواعد الإباحة، و عندما تكون القيم الإجتماعية التي يحملها الأولياء أساسية يصبح الأمر أكثر صعوبة للتلقي و التطبيق معا، و يتعلّق الأمر أساسا باحترام الأولياء و الأشخاص الكبار و التضامن المادّي و المعنوي مع العائلة».

و كثيرا ما تتضح هذه الصورة بشكل يومي نرى مظاهره مجسّدة في الواقع المعاش، كما تظهر في التعليقات الكثيرة و مظاهر السخط و الغضب التي يردّدها الكبار من جيل الآباء، حيث غابت كثير من القيم الإجتماعية و الأخلاقية التي توحي باحترام مجتمع الكبار مجسّدا في الآباء، فالآباء يردّدون أنّ القيمة أو الهيبة أو بالأحرى المكانة التي كان يتمتّع بها الآباء من قبل أصبحت تتلاشى شيئا فشيئا و بذلك فإنّ البعد السوسيولوجي للأبوة كمركز و مكانة مميّزه لها من الميزات و الإمتيازات ما يعطيها حق التكريم و الطاعة اجتماعيا و دينيا، بدأ هو أيضا يتغيّر بتغير عقلية و ذهنية الشباب، و بتغير مواقفهم و نظرتهم لهذا المفهوم أو الدّور و لعلّ من الأسباب الهامة لهذه المواقف هو انشداد بعض الشّباب و الأبناء إلى نوع من « الفردانية» التي في كثير من الأحيان توجّه سلوكاتهم إلى تفضيل القيم الفردية على القيم الجماعية، و تفضيل القيم المادية على القيم المعنوية. كما أنّ للتغير الإجتماعي على جميع الأصعدة آثاره الهامّة على تغير نمط الحياة الإجتماعية في المجتمع ككلّ، و على مستوى الحياة الأسرية باعتبارها الوحدة الأساسية و النواة الرئيسية و المحرّكة في المجتمع .

و تجدر الإشارة هنا إلى أنّ ما يقلق الشّباب في مجال علاقاته و تفاعلاته الإجتماعية في الأسرة هو أنّ « التقاليد تعطي كلّ السلطة في القرار للأشخاص الكبار، حيث يكون من

واجب الشّباب الخضوع الكلّي»،و هو الأمر الذي لا يتّفق معه معظم الشباب ذلك لأنّهم في حدّ ذاتهم يعيشون مرحلة ثورة و نشاط لا تشجّع فيهم قيم الخضوع، بل تتأكّد فيهم روح الإستقلالية، حيث يتطلّع الشاب في هذه المرحلة إلى أن يتّخذ قرارات تخصّ حياته و أن يناقش و يشارك في الحياة الأسرية، و بصفة عامّة أن يشاور و يكون له رأي أو يسمع إليه و يعامل كرجل مكتمل النضج و النمو، و لذلك فإنّ الوضع في هذه المرحلة يتغير بالنسبة للآباء و الأبناء معا. ذلك أنّ «الشاب لم يعد ذلك الشخص العطوف الذي كان يتّخذ كقاعدة لتصرّفاته و سلوكاته كل ما كان يفعله أبواه، حيث يريد في هذه المرحلة أن يفرض هو أيضا قواعده الأخلاقية»؛ و هذا ما يجعل العلاقة بين الآباء و الأبناء في هذه المرحلة تتغير لتتميز بنوع من الخصوصية بحجم خصوصية هذه المرحلة بالذات. لذلك تبدو مظاهر الصراع بين الأباء و الأبناء أشدّ ما تبدو في هذه المرحلة و قد يكون هذا الصراع خفيّ إلى حدّ ما في بعض الأسر، إلاّ أنّه سرعان ما تحضر متغيّرات معيّنة لتكشف عن حقيقة هذا الصّراع، و من بين أهمّ هذه المتغيّرات المتغيّر الإقتصادي الذي يدخل في علاقة الشباب بالآباء في هذه المرحلة من العمر، « و يظهر هذا الصراع عندما يشجّع الشّباب روح الإستقلالية أو الفردية لديهم و ذلك من خلال عدم موافقتهم على إعطاء أو تسليم كلّ مرتّبهم أو الجزء الأكبر منه لآبائهم ، بينما نجد الفتيات الشابات راضيات على ذلك لأنّهنّ تعتبرن أنّ ترخيص العمل لهنّ هو في حدّ ذاته مكسب كبير إلاّ أنّهنّ مع ذلك تتفاعلن، ضد مختلف الممنوعات التي تواجهّهنّ و التي تتعلّق بالمظهر اللّباسي، التربية، الخرجات ...إلخ.

و يتّضح من هنا تأثير البعد الاقتصادي في العلاقة بين الآباء و الأبناء، كما يظهر في الوقت ذاته مدى تأثير هذا البعد حسب اختلاف جنس الأبناء، و هذا ما يجعل للعلاقة بين الآباء و الأبناء الذّكور بالذّات نوعا من الخصوصية و مجالا أكثر اتّساعا لحدوث التوتّر و الصراع بناءا على الدّور المنتظر من كلّ جنس حسب ما هو متعارف عليه اجتماعيا و مصادق عليه جماعيا في المجتمع.

و بناءا على هذا نرى كما يرى « Ollivier Calland» أنّ نوعية العلاقات بين الأجيال أو بالأحرى الآباء و الأبناء في مرحلة الشّباب، تتجسّد أو تقوم على طبعين أساسيين:

هي في أوّل الأمر مبنية على السّلطة الأبوية المجسّدة في كلّ مكان و تجعل بين الأب و أبنائه مسافة تمنع كلّ نوع من الألفة بينهما، و الأمر الثاني مرتبط بقضية التبعية التي يجد الأبناء نفسهم فيها و التي يمكن أن تمتد لفترة

و في الأخير تظهر خصوصية العلاقة بين الآباء و الأبناء خاصّة في مرحلة الشّباب لأنّ التعامل هنا على غرار ما كان من قبل هو تعامل على نفس المستوى لأنّه يحمل معادلة ذات طرفين متوافقين لأنّها تجمع بين رجل و رجل على الرّغم من اختلاف كثير من المتغيّرات في هذه الأطراف (كالثّقافة التي يحملها كلّ جيل، الخبرة الأبوية ...الخ)لكنه يبقى أنّ الأمر هو كذلك على الأقلّ في نظر الشّباب ، و إن كنّا قد شدّدنا على الآباء واجب التفهّم و ضرورة التعامل الإيجابي مع هذه المرحلة و محاولة التغيير أو التعديل في حالة الضرورة فإنّ الأمر ذاته مطلوب من الأبناء، « فمن واجب الشّباب أن يدركوا تماما أنّ الظروف التي يعيشون فيها تختلف عن ظروف الماضي، إلاّ أنّها دون شكّ نابعة عن هذا الماضي،و أن يتيقّنوا أنّ الآباء و الأمّهات يفكّرون بعقلية يعتقدون في قرارة أنفسهم أنّها صائبة ، و الصراع في العلاقات يبدو حينما يرفض الأبناء أفكار الآباء، و إذا كان الأبناء من الشّباب قد أصبحوا على درجة من الثقافة و العلم، نتيجة إلزامية التعليم، فمن المؤكد أنّهم لا يزالون يحتاجون إلى مزيد من الخبرة يجدونها دون شكّ في الكبار من الآباء و الأمّهات و غيرهم».

و لذلك كلّما كان التفكير في الأسرة بصورة جماعية و مشتركة استطاع الأبناء و الآباء معا أن يعبّروا بوضوح عن أفكارهم و اتّجاهاتهم التي تصبح دون شكّ مقبولة على مستوى الطرح على الأقلّ .

و من هنا نقول أنّ علاقة الآباء و الأبناء هي أشبه ما تكون بمعادلة كيميائية، حيث أنّ هذه المعادلة العلائقية لا يكون لها حلّ إلاّ بتفاعل الطرفين، و نقصد هنا التفاعل الإيجابي المبني على التجاذب و ليس التنافر، و لذلك تظهر هنا أهمّية بل و ضرورة عامل الاتصال الاجتماعي في الأسرة كأفضل العوامل و أقربها في خلق و صنع هذا التجاذب بين الأطراف، لأنّه هو وحده يكسّر الحواجز بين الآباء و الأبناء،و بهذا يمكن حدوث التفاهم بناءا على تقريب وجهات النّظر على الأقلّ على الرّغم من الاختلاف الطبيعي الموجود بين الجيلين، و يمكن بالتّالي تفهّم وغضّ النّظر من كلا الطّرفين على كثير من المشاكل و صور القصور التي يبديها أحدهما خاصّة فيما يتعلّق بالقصور الوظيفي عند الأبناء الشّباب .

2- الأبعاد السوسيولوجية للتفاعل بين الآباء و الأبناء في مرحلة الشّباب:

لا شكّ أنّ كلّ فرد هو وحدة إنسانية، إلاّ أنّه لا يستطيع إلاّ أن يحيا في وحدة اجتماعية معيّنة، و هذا يعني أنّ الإنسان لا يستطيع بأيّ حال من الأحوال أن يعيش بمفرده على الرّغم من اختلاف قدراته و ميوله و رغباته عن الآخرين، فهو بذلك لن يستطيع أن

ينمو إلاّ بتفاعله مع الأفراد الآخرين من حوله، حتّى يتمكّن من اكتساب قيمه و سلوكه في إطار الحياة الجماعية،و من ثمّ تصبح الجماعات الإنسانية حتمية من حتميات النّمو الاجتماعي للفرد و بدونها لا يستطيع بحال أن يكتسب صفاته الاجتماعية « و ينظر إلى الأسرة على أنّها أصغر الوحدات الاجتماعية القادرة على التنشئة في المجتمع باعتبار أنّ لديها القدرة على تشكيل شبابها اجتماعيا و كونها مجموعة من المثيرات و الاستجابات المتفاعلة في عواطف و مصالح اجتماعية ذات طابع مترابط».

و لذلك فإنّ مظاهر القبول أو الرفض التي تحيط بالشّاب لها كبير الأثر على حياته في الأسرة، و على تفاعله الاجتماعي فيها، ذلك أنّ تعامل الآباء مع الأبناء عادة ما يكون مبني على مدى الرّضى أو عدم الرّضى على الأبناء، و لذلك، « يلقى تقبّل الوالدين للنّاشئ أو رفضهم له أثر كبير على شخصيته، على حين أنّ الرّفض يعرقل عملية النّمو و قد يقضي على تطلّعات النّاشئ و مطامحه الشّخصية».

و بناءا على هذا نقول أنّه يمكن تناول موضوع العلاقة الوالدية مع الأبناء في مرحلة الشّباب انطلاقا من أبعاد مختلفة يختلف مضمونها حسب اختلاف النّظرة التي ينطلق منها الآباء في مسار تعاملهم مع الأبناء بناءا على النّموذج التصوّري الذي يبنيه كلّ والد عن ابنه، و الذي يختلف بهذا من والد إلى آخر، و من أسرة إلى أخرى حسب الشّخصية و الخصائص النّفسية و الإجتماعية التي يحملها الأباء.

و سنحاول هنا التمييز بين ثلاث أبعاد أساسية للعلاقة بين الآباء و الأبناء و تشمل هذه الأبعاد :

- البعد السوسيو تربوي:

و الذي لابدّ أن تشمّله كلّ علاقة اجتماعية في إطار الأسرة باعتبار أنّ «التربية « هي الهدف الأسمى و الرسالة الأنبل للوالدين اتّجاه الأبناء ككلّ، و لذلك فلا بدّ أن ينظروا إلى هذه العلاقة انطلاقا من أنّ تربية الأبناء هو الهدف النّهائي للإجتماع في إطار مؤسّسة الأسرة و لذلك هو الذي لا بدّ أن يؤثر في هذه العلاقة.

- البعد السوسيوثقافي :

والذي كثيرا ما يؤثّر في العلاقة بين الآباء و الأبناء خاصّة في مرحلة الشّباب، حيث تختلف الأطر الثقافية لكلّ من الآباء و الأبناء، و كذلك يطبع العلاقة بينهما نوع من الصراع بين الأجيال فينظر حينها كلّ جيل إلى الآخر كطرف مستقلّ، فتظهر بينهما فجوة ثقافية يحاول كلّ جيل سدّها بمفاهيمه الثقافية الخاصّة بناءا على تصوّره العام للأمور.

- البعد السوسيواقتصادي:

و هو يمكن أن يؤثر أيضا في العلاقة بين الآباء و الأبناء خاصّة عند كبر الأبناء، أين يصبح الآباء يتعاملون مع الأبناء كأشخاص أصبحوا مؤهّلين لتحمّل أعباء مسؤولياتهم الاقتصادية، و بالتالي قد تكون العلاقة بينهما مبنية على مدى تمكّن أو نجاح الأبناء في تحمّل هذه المسؤولية.

و سنحاول فيما يلي عرض أو تناول كل بعد من أبعاد هذه العلاقة.

البعد السوسيوتربوي للعلاقة بين الآباء و الأبناء في الأسرة:

تعتبر الأسرة الوحدة الأساسية في المجتمع، و هي المؤسّسة الاجتماعية التي تكفل بتربية الأبناء منذ مراحل الطفولة الأولى، و هي بطبيعة الحال إذن وحدة لها كثير من التّأثير على الأفراد نظرا للانتماء البيولوجي و الاجتماعي الذي يكتسبه الفرد بفضلها، و لأجل هذا تستمدّ الأسرة قوّتها من كونها المؤسّسة أو الوسيلة الحقيقية لتنشئة الأبناء.

و بناءا على هذا يظهر الدّور و الوظيفة التربوية التي تلقى على عاتق الوالدين في الأسرة، و يظهر من هنا أيضا الاتجاه الذي يبنيه الآباء نحو أبنائهم انطلاقا من الهدف التربوي الذي يسعون لتحقيقه في إطار الأسرة من خلال طبيعة القيم الأخلاقية و الاجتماعية التي يعملون على ترسيخها فيهم من خلال عملية التنشئة الاجتماعية.

و على هذا الأساس، يكون من الأهداف الرئيسية لتفاعل الآباء مع الأبناء هو الوصول إلى خلق نموذج تربوي يحمل مجموعة من الصفات و الخصائص الأخلاقية و الاجتماعية و التربوية.

فالآباء لا بدّ أن ينظروا للأبناء كقضية تربوية بالدّرجة الأولى، باعتبارهم وسيلة لتحقيق غاية و هي تربية الأبناء .فعلى عاتق الآباء إذن تلقى مسؤولية التربية و التنشئة الاجتماعية ،فمن الجدير بالتّوضيح أنّ الأبناء عامّة و الشّباب بصفة خاصّة طاقة إنسانية و فعالية اجتماعية تحتاج إلى ضوابط الكبار و رعايتهم لهم، و الأخذ بآرائهم و توجيهاتهم،

و لذلك « فإنّ المجتمع يمنح الأسرة بوصفها مؤسّسة اجتماعية، دور تنشئة أبنائها على مدى ثقافته و قيمه، فتجعلهم يتمثّلون عناصر حضارية و ينقلونها بدورهم من جيل لآخر، و هذا الدّور هو ضابط الاستمرارية الاجتماعي بشكل من الأشكال، على أنّ تحقيقها ينبغي ألاّ يكون على حساب الأفراد و ضدّ مصالحهم، فتأمينها يجب أن يتوافق مع الإفساح في المجال للطّاقات و القدرات الفردية للإطلاق و التّفتّح، أمّا إذا اصطدمت بها و قمعتها و أجبرتها على الاستكانة، فإنّ الاستمرارية تنقلب إلى قيد يعيق حركة المجتمع و تطوّره».

و الواقع هو أنّ الأبناء هم بالنّسبة للآباء فرصة لإثبات كفاءاتهم التربوية، و هم بمثابة حقول يغرس فيها الآباء القيم و المبادئ التي يؤمنون بها، و لذلك فإنّ أكبر و أهمّ حقّ للأبناء و بالتالي أهمّ واجب هو على رأس قائمة كلّ الواجبات المفروضة على الآباء هو واجب التربية، هذا الواجب الذي يحمل في طيّاته كثير من الاختلافات حسب اختلاف الأساليب المستعملة لتحقيقه.

و هذا يعني أنّ الوظيفة الرئيسية للأسرة هي تربوية بالدّرجة الأولى، و بناءا على هذا يكون تعامل الآباء مع الأبناء أطفالا كانوا أم شبّانا،لأنّ الأبناء هم في كلّ الأحوال موضوع العملية التربوية ككلّ، و عدم وجودهم يقللّ من القيمة الاجتماعية و التربوية للوالدين لأنّه يقلّص من وظيفتهما و بالتالي دورهما في الأسرة. و قد تحدّث الإسلام كذلك عن أهمّية أو حقيقة البعد التربوي للمؤسّسة الأسرية كما ركّز القرآن على أهمّية و دور الوالدين في تربية الأبناء بل و على مسؤوليتهم التّامة في تنشئة الأبناء التنشئة السليمة و هذا لأنّ «التربية الاجتماعية تبدأ في نطاق الأسرة أوّلا ثمّ المدرسة ثمّ المجتمع، فالأسرة هي التي تكسب الطفل قيمه، فيعرف الحقّ و الباطل و الخير و الشّر ...و لذلك وجّه الإسلام ربّ الأسرة إلى تعليم أهله و الاهتمام بهم تربويا و عدم الاقتصار على السّعي على رزقهم،فكان عليه الصّلاة و السّلام يقول لأصحابه رضوان الله عليهم « ارجعوا إلى أهلكم فأقدموا فيهم و علّموهم».

و من هنا يظهر البعد التربوي للعلاقة بين الآباء و الأبناء حيث لا بدّ أن يعتبر الأبناء بالدّرجة الأولى غاية تربوية في حد ذاتها ثم بعد ذلك يمكن أن يكونوا وسيلة لتحقيق غايات أخرى قد تعبر بشكل أو بآخر عن ردّ جميل للأبوين .

ب- البعد السوسيوثقافي للعلاقة بين الآباء و الأبناء في الأسرة:

في كثير من الأحيان ينشأ الصّدام بين الآباء و الأبناء الذين يمثّل كلّ منهما جماعة عُمرية خاصّة بكلّ جيل، و يكون هذا الصّدام نتيجة عدم قدرة كلّ جماعة على تفهّم الجماعة الأخرى ،و هنا يجد الآباء صعوبة في تربية أو بالأحرى في توجيه أبنائهم نظرا لاختلاف نظرتهما للأمور، الشيء الذي يؤدّي بدوره إلى صعوبة التعامل بينهما في كثير من المواقف،

و قد يكون أحيانا سعي الأبناء إلى التمتّع بنوع من الاستقلالية في حياتهم الخاصة، دافعا لسخط الآباء و تهجّمهم عليهم، على الرّغم من أنّ ذلك يعتبر حقا مشروعا لهم بحكم مرحلة النّضج التي وصلوا إليها و ما تتّسم به من خصائص و احتياجات على جميع المستويات،و هنا نجد أنّ بعض الأهل أحيانا يعجزون عن تفهّم نزعة ابنهما إلى

الاستقلالية، و الحقيقة أنّ عجز الآباء عن تفهّم هذه التغيرات الطبيعية و الضرورية في حياة ابنهم الشاب يعبّر عن دوافع لاتّخاذ مواقف سلبية اتّجاه الأبناء الشباب خاصّة، و الممهّدة في الوقت ذاته إلى حصول نوع من عدم الرضا عند الآباء نحو هؤلاء الأبناء بفعل تراكم المواقف السلبية اتّجاههم، و هذا يعبّر في حدّ ذاته عن صورة من الصور التي يصعب أو يتعسّر فيها الاتصال في الأسرة، و لذلك نقول أنّ دراسة أو تناول الاتصال الاجتماعي للآباء مع أبنائهم الشّباب من مدخل التفاوت الثقافي بين الجيلين يعبّر في الواقع عن علاقة هذا التفاوت بين الأجيال بمحدودية نظرة كلا الطرفين (الآباء و الأبناء) لبعضهما البعض، بفعل اتّساع المسافة التي يخلقها هذا التفاوت الذي يصاحبه نوع من الصراع الجيلي المتتابع ،و يدفعنا هذا إلى الحديث عن إحدى الدّراسات التي قام بها Louis Roussel و التي اهتمّت بدراسة قضيّة التتابع الثقافي من جيل إلى آخر حيث توصله هذه الدراسة إلى نقطة هامّة و هي وجود مسافة معتبرة بين جيل الآباء و جيل الأبناء، تتميّز بوجود نوع من التعارض بين الأفكار من جهة، مع عدم تجاوز كلّي للحدود من جهة أخرى، و ذلك من خلال تفادي الحديث في بعض المواضيع و الطابوهات قصد تفادي و إبعاد الصراعات من أجل التمكّن من التعايش الثقافي للحفاظ على العلاقات الاجتماعية بين الجيلين».

و هذا يعني أنّ نظرة الآباء لأبنائهم الشّباب يمكن أن تنتج أيضا عن أنماط تفكير خاصّة بالوالدين مستمدّة من إطار ثقافي مرجعي خاص بمجتمع الكبار يدفع بالآباء إلى رفض و عدم تقبّل لكثير من السلوكيات و الأفكار التي يستمدّها الشّاب بدوره بناءًا على إطار ثقافي مرجعي خاص به ينصبّ هو الآخر فيما نسميه بثقافة الشباب، و التي هي مبنية بدورها على قيم و قواعد سلوكية هي في كثير من الأحيان غير مقبولة بشكل ما عند جيل الكبار .

و بناءا على هذه المعطيات، يكون « الوجود الشّخصي للفرد محدّد مبدئيا بوجود أو عدم وجود تبادل في العلاقات، و بالتالي فإنّه يكون من الصّعب إذن وضع حدود معيّنة لوظيفة الفرد و مسؤوليته عندما يكون هذا الأخير عضوًا في نظام للعلاقات المباشرة مع الأفراد الآخرين المكوّنين لأسرته».

و هذا يعني أنّ التبادل الإيجابي للعلاقات بين الآباء و الأبناء هو تعبير عن تواصل بين هذين الجيلين، و هو الشيء الذي يسمح للابن خاصّة باعتباره مربط الفرس إن صحّ التعبير، و موضوع الحديث، يسمح له بالشّعور بنوع من إثبات الذّات أو الوجود في محيط الأسرة في الوقت الذي يكون فيه غير مخيّر في تحديد أطراف التأثير و التأثّر في الأسرة.

و تجدر بنا الإشارة في هذا الصّدد إلى قضية الصراع القيمي و الحضاري بين الأجيال في مجتمع يتحوّل تحوّلا سريعا اتّجاه النّمو الاقتصادي و الاجتماعي و الثقافي و هذه القضية ترتبط أشدّ ما ترتبط بالتغير الاجتماعي، فالشّاب أكثر تمسّكا بكلّ ما هو جديد و عصري فكرا وسلوكا في حين يحاول جيل الآباء التمسّك بكلّ ما هو تقليدي و مألوف و متعارف عليه و هنا يحدث الصّراع.

و من هنا يمكن التطرق إلى الجانب العلائقي للآباء و الأبناء انطلاقا من مدخل الصّراع الجيلي بينهما على أساس أنّ عمليات التفاعل و الاتصال بينهما تكون مبنية أساسا على النموذج الثقافي الذي يميّز كلّ جيل.

و بناءا على هذا إذن يكون تناول موضوع الاتصال بين الآباء و الأبناء من باب التفاوت الثقافي وفقا للنمط الفكري المميز لكل وحدة جيل و الذي على أساسه تبنى ميكانيزمات التفاعل الاجتماعي و التعامل بن الآباء و الأبناء، حيث يمكن بهذا الوصول إلى أنّ بعض مشاكل و صعوبات الإتّصال يمكن أن تكون جذورها متأتية من مشكلة الصراع الجيلي بينهما نظرا للاختلاف الثقافي الطبيعي الموجود من جهة، بالإضافة إلى الاختلاف الزماني و التغير الاجتماعي السريع الذي يؤكد عدم مواكبتهما لنفس الظّروف و الفترات التاريخية في المجتمع، ممّا يزيد رقعة الإختلاف و يوسّع الهوّة بينهما .

ج- البعد السوسيواقتصادي للعلاقة بين الآباء و الأبناء:

إنّ اختيارنا و تناولنا للبعد الاقتصادي في العلاقة بين الآباء و الأبناء قد جاء من منطلق أنّ الأسرة هي جزء قائم بذاته من المجتمع و في نفس الخط مع القطاعات الاجتماعية الأخرى، ذلك أنّ التبادلات المختلفة (الاقتصادية مثلا(التي يمكن أن نجدها في بعض المؤسّسات في المجتمع يمكن أن نجدها أيضا في مؤسّسة الأسرة و مثال ذلك التعاون و التبادل الاقتصادي الحاصل بين أفرادها .

و الواقع أنّ « المساهمة أو المشاركة الاقتصادية التي يمثلها كل فرد في الأسرة هي من المعطيات الأساسية خاصّة في البلدان النّامية، أين يكون تدبر المعيشة في حالات معيّنة من أكبر المهمّات التي تقع على عاتق الأسرة، و لهذا فإنّه من الممكن اعتبار بعض القضايا (كالسّلوك الإنجابي في الأسرة) مرتبطة بالدّور الاقتصادي الذي لابدّ أن يؤكده أو يضمنه كل فرد في الأسرة» .

و بناءا على ذلك يكون للدور الاقتصادي الذي يقوم به كلّ فرد في الأسرة ابنا كان أو والدا كثيرا من الأهمّية في محاولات تحقيق الاستقرار المادي للأسرة و الذي هو جزء

مهمّ جدا لتحقيق الاستقرار العام، و من هذا المنطلق يمكن النظر إلى الشباب أيضا من مدخل اقتصادي يشير إلى أنّ هذه الشريحة يمكن أن تكون ثروة اقتصادية و فعالية مادية تضاف إلى الفعاليات الموجودة في الأسرة بحيث يجد الآباء العون فيما يحظى به الأبناء من مناصب شغل و مداخل للكسب، و على هذا فإنّ "الابن في حالات كثيرة يستطيع أن يتحكّم اقتصاديا و ماليا و ثقافيا . إلاّ أنّ الابن الفاضل الحساس لا يشعر والده أبدا بتفوقه الاقتصادي من أجل تفادي الصراع المباشر . ومن جهة أخرى فإنّ البنية الاجتماعية الجديدة التي ظهرت منذ الاستقلال في البلاد جعلت الابن يتمتّع بكيان أو مركز لم يتمتّع به من قبل و أصبح يلعب دور عون اقتصادي فعال حيث أنّ هذا الكيان و هذا الدور يجعلانه على مستوى أسرته موضع قوة، الشيء الذي يزيد من حظوظه في القبول في محيط الأسرة يوما بعد يوم و يسمح له بتنظيم مستقبله و تصور حياته الخاصة .

و الحقيقة أنّ النجاح الاقتصادي للابن لا يجب أن يكون بأي حال من الأحوال مدعاة لوجود قطيعة بين الأب و ابنه، بل العكس من ذلك لا بد أن يزيد ذلك من فعالية الرباط الأسري، نظرا لضرورة التكامل الذي يفرض نفسه بينهما، و لأنّ نجاح أحدهما يعتبر مكسب و افتخار بالنسبة للآخر.

و تجدر الإشارة هنا إلى أنّ الدخل المادي للابن قد يفقد من قيمته و وزنه بالنسبة لموقف الأب عندما تكون الأسرة التي ينتمي إليها الشاب في حالة من الرخاء المادي، حيث يصبح الأب أو الأسرة بأكملها في غنى عن العون المادي الذي يقدّمه الابن. و هذا يعني من جهة أخرى أنّ محدّدات القبول أو الرضا للشاب تختلف من أسرة إلى أخرى حسب اختلاف مستواها المعيشي ذلك أنّ المنصب المهني للشاب يمكن أن يعبر في الأسرة ذات المستوى المعيشي البسيط عن مكسب مادي إضافي يساعد في تحمل أعباء المسؤولية الاقتصادية للأسرة من جهة، و يعبر في الوقت ذاته عن صورة من صور النجاح الاجتماعي للشاب على مستوى المجتمع من جهة أخرى، على غرار ما قد نجده عند الأسر ذات المستوى المعيشي الجيد حيث يمكن أن يقتصر مدلول " عمل الأبناء على قضية النجاح الاجتماعي في المجتمع و مواصلة الركب في رحلة " وراثة المراتب الاجتماعية ".

و بناءا على هذا يمكن أن نتناول موقف الآباء من عمل الأبناء في الأسرة انطلاقا من مستويين اثنين : أحدهما يتعلق باعتبار " عمل الابن "وسيلة لتحقيق الحركية الاجتماعية بكل ما يساهم به من تحسين الوضعية الاقتصادية و بالتالي المعيشية للأسرة من جهة، و باعتباره بذلك نوع من النجاح الاجتماعي الذي يمنح للابن دور و مركز جديد على مستوى الأسرة و المجتمع معا . و الذي قد يسمح يوما ما بالانتقال إلى مستوى معيشي أفضل انطلاقا من مدخل تداول المراتب الاجتماعية. و ثانيهما يتعلق باعتبار " العمل " أو

" الوظيفة" أسلوبا من أساليب المحافظة على المستوى المعيشي للأسرة انطلاقا من مدخل إعادة إنتاج نفس المرتبة أو الطبقة الاجتماعية . و في هذه الحالة يشير" العمل" إلى نجاح معنوي أكثر منه مادي، و في هذا تقول M.Ségalen في كتابها : Sociologie de la famille : « أنّ الأبناء سيتقاسمون مع والديهم فوائد حركيتهم الإجتماعية الصاعدة».

و هناك دراسة أجريت حول علاقة الآباء و الأبناء على مجموعة آباء في سن التقاعد و توصّلت هذه الدراسة إلى أن الآباء يكونون سعداء جدا بالعون المادي الذي يقدمه لهم الأبناء (المساعدة في الإيواء، تغيير الأثاث ..... الخ)، و هنا يمكن أن نوظف مصطلح « التبادل بين الأجيال».

و قد يدعونا هذا التصور إلى التساؤل عن حقيقة هذه العلاقات الاجتماعية الموجودة في هذه الحالة: هل هي ثمرة تبادل المصالح إذن أم هي فطرية و طبيعية لأنّها ثمرة عطف و حنان متبادل ؟.

و الحقيقة أنّ الإجابة على هذا التساؤل تدفعنا إلى قراءة ما كتبته M.Segalen حول التبادل في إطار الأسرة، حيث تقول : « إنّ التبادل الذي نتحدث عنه في الأسرة نشير إليه من خلال ميزة « المبادلة غير المباشرة و لا المتماثلة»، بل هي كما يقول «ليفي ستراوس»، عامّة و معممة، و لعل الحديث عن «المدى» يبدو أكثر ملائمة لأنّ هذه الميزة (التبادل)، تأخذ بعين الاعتبار فكرة « الرد « بأشكالها المختلفة، و بتعبير آخر: أنا مدين لوالديّ .أعلم أنّني مستقبلا أستطيع أن أردّ لهم الجميل مباشرة عندما يكونان في حاجة إلي، و بالتالي فإنّ المساعدات الأسرية لا تمثّل مجموعة من القواعد الخارجية المفروضة بل بالعكس فهي منظر طبيعي معياري يناقش في كلّ وضعية.

و هذا يعني أنّ التبادلات التي تحدث داخل الأسرة هي طبيعية، و لذلك نجد أنّ الآباء يسعدون كثيرا عندما يلتحق الأبناء بمنصب شغل نظرا لاعتمادهم على دخلهم ،من باب أنّ عمل الابن يقلل نوعا ما من عبئ مسؤولية الوالد تجاه الأفراد لآخرين .

و من هنا « يجد الشباب أنفسهم في كل مرحلة من مراحل عمرهم يستطيعون أن يعملوا و أن يكتسبوا نتيجة خبراتهم، و باتساع العمل استطاع الشاب في الأسرة أن تكون له اقتصادياته الخاصة به . و إلى جانب تقديم الأبناء مساعداتهم للآباء ،فانّ الوالدين كثيرا ما يساعدان أولادهما في الأزمات المالية كواحد من الواجبات المفروضة عليهم اتجاه أبنائهم»، وهذا يعني أنّ التبادل يتم في الطرفين، إلاّ أنّ ما يمكن قوله هنا هو أنّ هذا التبادل لا تحكمه قوانين مادية اقتصادية، بقدر ما تحكمه و توجهه علاقات عاطفية و إنسانية نمت داخل مؤسسة الأسرة و أكدتها قواعد التنشئة الاجتماعية كواجب و حق معترف به يحمل صاحبه كثير من الشكر و العرفان.

و ما يمكن قوله عموما حول موضوع عمل الأبناء، هو أنّه « من خلال العمل يتحقق اندماج الإبن في دائرة الأسرة، و يعترف به كعضو له قيمته فيها ،و يسهم هذا الأمر بدرجة بالغة في إشباع حاجة الفرد السيكولوجية للاعتراف الاجتماعي».

و أخيرا يمكننا القول أنّ هذا الاعتراف أو القبول الاجتماعي الذي نتحدث عنه في محيط الأسرة، يمكن أن يكون من محدداته الدور الاقتصادي للابن في الأسرة، و ما ينجر عن ذلك من انعكاسات على الجانب العلائقي له مع أفراد الأسرة خاصة الوالد باعتباره عادة ممثل السلطة فيها و المسئول الرئيسي على تلبية الحاجات المعيشية لأفرادها .

و على هذا الأساس يمكن تناول التفاعل بين الآباء و الأبناء من باب هذا البعد الاقتصادي في العلاقة بينهما، و ذلك بناءا على مختلف التغيرات التي يمكن أن تطرأ على الحياة العلائقية للشاب في محيط الأسرة ، انطلاقا من امتلاكه للسلطة الاقتصادية التي تسمح له بتسجيل دور ذي فعالية في الأسرة و ذلك من خلال المشاركة الاقتصادية التي يمكن أن يقوم بها الابن في شبكة عملية الإنتاج داخل الأسرة من جهة ، و بفضل أيضا مختلف مظاهر التضامن الاجتماعي التي يمكن أن يبديها هذا الابن في مختلف المناسبات الأسرية التي تطلب جهودا اقتصادية معتبرة . و هذه العوامل المختلفة يمكن أن تؤثر بشكل أو بآخر على توجيه العلاقة بين الآباء و الأبناء ، هذا التوجيه الذي قد يأخذ طابعا إيجابيا يوفر بيئة و ظروفًا موائمة لحدوث الاتصال بين الأفراد كشكل من أشكال التواصل بينهم .

و تظهر في الأخير ، أهمية العلاقة بين الأفراد داخل الأسرة ، و أساسا العلاقة بين الآباء و الأبناء ، حيث كثيرا ما تكون هذه العلاقة نتيجة مباشرة لطبيعة الأسلوب التربوي المنتهج من قبل الآباء في تعاملهم مع الأبناء ، و على هذا الأساس يمكن أن نلتمس انعكاسات السلطة الأبوية و الأساليب القمعية التي قد يمارسها الآباء على الأبناء ، كما يمكن أن نميز بالمقابل احتمالات النجاح العلائقي التي يمكن أن تنجر عن تحول هذا النمط في التعامل إلى أسلوب يتسم بالحوار و المناقشة ، و التي تعتبر ركائز أساسية في عملية الاتصال الشخصي داخل الأسرة ، و التي تفرض نفسها أكثر فأكثر خلال مرحلة الشباب .

و قد يزيد الأمر تعقيدا جهل الآباء بخصوصية هذه المرحلة من حياة الفرد ، المرتبطة بظهور مفاهيم جديدة تنصب كلها في إطار الثقافة الشبابية التي كثيرا ما يكون سوء التعامل معها سببا مباشرا لبروز مأزق علائقي بسبب صراع الأجيال بين الآباء و الأبناء داخل الأسرة.

و من هنا تستمد العلاقة بين الآباء و الأبناء في هذه المرحلة خصوصيتها ، انطلاقا من مختلف الأبعاد التي يمكن الاستعانة بها في قراءة حركية و ميكانيزمات عملية التفاعل الاجتماعي بينهما ، الشيء الذي يسمح بالتعرف على مختلف الخلفيات (تربوية كانت أم ثقافية أم اقتصادية) التي قد تتحكم في اختيار أسلوب التعامل و بالتالي تحديد شكل التفاعل من حيث تشجيعه على روح الحوار و المناقشة ، أم أنه قائم على ممارسة مختلق مواقف التضييق و التجنب من طرف الآباء على الأبناء.

قائمة المراجع:

- محمّد علي محمّد، الشباب العربي و التغيّر الاجتماعي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1987.
- عباس مكي، زهير حطاب، السلطة الأبوية و الشباب، معهد الإنماء العربي، شركة تكنوبرس الحديثة، ش.م.ل،بيروت، لبنان.
- السيد عبد العاطي السيّد : صراع الأجيال (دراسة في ثقافة الشباب) ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر ، 1990.8
- Djamchid Behnamet : Familles musulmanes et modernité, ed, Publisud, Paris, 1986.
- Souad Khodja, : A Comme algérienne, Enal, Alger, 1991.
- Jacque line Renaud : Faut-il dire non à ses enfants (les piéges de l'éducation), ed Publisud, France, 1988.
- Abdelkader Chaker : La jeunesse algérienne en France, ed., SNED, Alger, 1977.
- عدلي سليمان : مسؤوليات الشّباب في مجتمعنا الثائر، دار القومية للطباعة و النشر، البلد غير مذكور ، السنة غير مذكورة.
- ميخائيل إبراهيم أسعد و آخرون: مشكلات الطفولة و المراهقة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1986.
- أكرم ضياء العمري: التربية الروحية و الاجتماعية في الإسلام، مركز بحوث السيرة و السنّة، الدّوحة، قطر، 1984.
- M..Seghalen : Sociologie de la famille, ed : ARMAND COLIN, Paris, 2e édition , 1996.
- J.C.Cordéiro : L'Adolescent et sa famille,ed Edouard Porivat, Toulouse, 1975.
- نبيل محمد توفيق السمالوطي: الدراسة العلمية للسلوك الاجرامي، دار الشروق، جدة، 1983.
- Dorra Mahfoud Draoui et autres; Structure familiales et rôles sociaux, ed Céres, Tunis, 1994.
- Mustapha Boutefnouchet : La Famille Algerienne ,ed :SNED, Alger, 1982.